الإسلام آخر عمره إذ يريد تغيير الشريعة وجعلها مثل كتب القوانين الوضعية، فأرجو أن يعفيني أفندينا من تعريض نفسي لهذا الاتهام لئلا يقال مات كافراً.

فلما يئس الخديوي أمر بالعمل بالقوانين الفرنسية، والقصة المحزنة تحكي فساد الأمراء والعلماء جميعاً، وتكشف أن ما أصاب المسلمين من شتات وخزي ليس بلاءً يؤجرون عليه ولكنه عقاب يستحقونه ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1].

ولقد كنت أسأل نفسي: نحن نكافح هذه القوانين المستوردة من الخارج وما تضمنه من فساد وإلحاد، فكيف دخلت بلادنا؟ وماذا كان موقف العلماء منهم يوم جاءت ولم يموتوا دون تحكيمها في مجتمعنا؟

ثم علمت أن موتنا الأدبي هو الذي مهد لقبولها واستقرارها[2].

❑❑

وسائل التأثير الغربي في الشرق الإسلامي

حدد الكاتب د. يوسف القرضاوي في عدة نقاط رئيسة الوسائل التي كان لها التأثير السلبي على المجتمع الإسلامي

(1) سورة هود، الآية: 117.
(2) قذائف الحق، ص: 137.

وذهاب شخصيته:

1 ـ **الوسيلة الأولى**: التعليم والتربية: وسلك الغرب في غايته طرقاً شتى:

البعثات إلى الغرب

أولاً: لقد حرص المستعمر المتحكم على أن يجعل أكثرية المبعوثين إلى دياره يدرسون الأدب والفنون والعلوم الاجتماعية ؛ لأنها هي التي تصنع للإنسان أفكاره وقيمهُ وموازينه. هذا مع أن الشيء الذي كانت تحتاجه هو العلوم المحضة والعلوم التطبيقية التي يترتب على التفوق فيها الرقي الصناعي والنمو العمراني والتقدم العسكري، والازدهار الاقتصادي .

ولكن المستعمرين الماكرين أصروا أن يحتكروا هذا الجانب لتظل البلاد في حاجة إلى خبرائهم، ولتظل سوقاً مفتوحة لبضائعهم.

ولا غرو إذا رأينا هؤلاء المبعوثين إلى الغرب يذهبون شرقيين ويعودون ـ إلّا من عصم الله ـ متغربين علمانيين لم يغيروا أسماءهم ولا دينهم الرسمي، ولكنهم غيروا أفكارهم وقيمهم ونظرتهم إلى الدين.

ثانياً: المدارس التبشيرية والأجنبية: لقد زرع الاستعمار مئات المدارس التي تأخذ الطفل منذ نعومة أظافره عجينة لينة فتصوغه كما تريد.

ثالثاً: المدارس الحديثة تقوم على الأسس الغربية

خالصة. يقول محمد إقبال رحمه الله: إن التعليم (على الطريقة الغربية) هو (الحامض) الذي يذيب شخصية الكائن الحي ثم يكوّنها كما يشاء، إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيماوية، وهو الذي يستطيع أن يحول جبلاً شامخاً إلى كومة من التراب.

الوسيلة الثانية: الصحافة والإعلام:

التي لا يقيدها ما يقيد المدرسة من مناهج ورسميات، ولا تختص بعدد من التلاميذ، إنها وسيلة شعبية ناجحة، تستطيع أن تغير بموضوعاتها وأساليبها العقول والأفكار.

الوسيلة الثالثة: الغزو الاجتماعي:

بإدخال العادات والتقاليد الغربية والأذواق الغربية في حياة الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم.

لقد جلبوا إلى هذه البلاد نساءهم الكاسيات العاريات وخمورهم ومسارحهم ومراقصهم، وقصصهم وجرائدهم ورواياتهم وعبثهم ومجونهم، وأباحوا من الجرائم ما لم يبيحوه في ديارهم، ونجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم أعظم نجاح، فهو غزو محبب إلى النفوس لاصق بالقلوب طويل العمر، قوي الأثر، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسي والعسكري أضعاف بأضعاف، (فأضل الشرقيون أنفسهم فإذا هم أجسادهم تنبض بقلوب الغرب وتُفكر بعقولهم، وإذا هم متلمون لكل ما تطلع).

❑❑

أمير لا يصلح للشهادة

تأمل أخي المسلم هذه القصة العجيبة التي تكشف عن جانب منير من حضارتنا.

يروى أن السلطان العثماني بايزيد محمد أحد سلاطين الدولة العثمانية العليا دُعِيَ إلى المحكمة الشرعية بين يدي الشيخ شمس الدين محمد بن حمزة ألفناري قاضي القسطنطينية ليشهد أمامه في قضية من القضايا، فما كان من الشيخ ألفناري إلّا أن ردَّ شهادة السلطان ولم يقبلها! وسأل السلطان عن سبب رد شهادته:

فقال له الشيخ: إنك تارك للصلاة مع الجماعة!

فرضخ لأمر القاضي، ثم أمر ببناء مسجد أمام داره ولم يترك الصلاة مع الجماعة بعد ذلك[1].

❑❑

أمير متهم أمام الخليفة

شكى أهل حمص عند عمر بن خطاب ﷺ أميرهم سعيد بن عامر الجمحي ﷺ عند زيارة له، فجمع عمر بينه وبينهم وقال: ما تشكون من أميركم؟ قالوا: أربعة:

الأولى: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، قال عمر: ما ذاك يا سعيد؟ قال: والله إني كنت أكره أن أقول ذلك، أما

(1) مجلة التربية الإسلامية العراقية، 1975م.

وإنه لا بد منه: فإنه ليس لأهلي خادم فأقوم في كل صباح، فأعجن لهم عجينهم ثم أتريث قليلاً حتى يختمر ثم أخبزه لهم ثم أتوضأ وأخرج للناس.

قال عمر ﷺ: وما تشكون منه أيضاً؟ قالوا:

الثانية: أنه لا يجيب أحداً بليل، قال: وما تقول في ذلك؟ قال: إني والله كنت أكره أن أعلنه، فأنا قد جعلت النهار لهم والليل لله ﷻ.

والثالثة: إنه لا يخرج إلينا يوماً في شهر قال: وما هذا يا سعيد؟

قال: ليس عندي خادم يا أمير المؤمنين وليس عندي ثياب غير التي عليّ، فأنا أغسلها في الشهر مرة، وأنتظرها حتى تجف، ثم أخرج إليهم في آخر النهار.

الرابعة: إنه تصيبه من حين إلى آخر غشية فيغيب عمن في مجلسه، فقال: وما ذاك يا سعيد؟

قال: شهدت مصرع خبيب بن عدي، وأنا مشرك يوم ذاك ورأيت قريشاً تقطع جسده. وهي (قريش) تقول: أتحب أن يكون محمد مكانك؟ فيقول: والله ما أحب أن أكون آمناً في أهلي ومحمد ﷺ تشوكه شوكة، ورأيتهم يقطعون لحمه إرباً إرباً وهو حي ويقول: اللّهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً. ثم لفظ أنفاسه الأخيرة.

والله يا أمير المؤمنين ما ذكرت ذلك اليوم وكيف أني تركت نصرته إلّا ظننت أن الله لا يغفر لي، فتصيبني تلك

الغشية والفقدان التي يشكوها أهل حمص مني منذ ذلك. قال عمر: الحمد لله الذي لم يخيب ظني به. ثم بعث له ألف دينار يستعين بها على حاجته[1].

□□

المهاجرون بالحق

لقي رجل من العلماء الأمير سليمان بن عبد الملك فقال له:

سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى: إنه قد اكتنفك رجال أساؤوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، وخافوك في الله، ولم يخافوه فيك، فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه.

فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً، والأمة كسفاً وخسفاً، وأنت مسؤول عما اجترموا، وليسوا مسؤولين عما اجترمت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس عند الله غبناً من باع آخرته بدنيا غيره.

وكان العلماء يرون أنفسهم مسؤولين بتذكير الملوك والأمراء، ويدل على ذلك قول شعيب بن حرب:

بينما أنا في طريق مكة إذ رأيت هارون الرشيد (وهو مَلِكٌ لو قيس بالنسبة لملوك اليوم) فقلت لنفسي: قد وجب عليك

(1) استقيتها من كشكول الأخ الشيخ عبد الجليل الحديثي المسمى (لطائف ذات بهجة) وهو مخطوطة. وهو ينقل هذه الواقعة من كتاب: صور من حياة الصحابة، عبد الرحمٰن رأفت باشا، ص: 15.

الأمر والنهي، فقالت لي: لا تفعل فإن هذا رجل جبار، ومتى أمرته ضرب عنقك، فقلت لنفسي: لا بد من ذلك، فلما دنا مني صحت: يا هارون قد أتعبت الأمة، وأتعبت البهائم، فقال: خذوه، فأدخلت وهو على كرسي وبيده عمود يلعب به فقال: ممن الرجل؟ قلت: من أفناء الناس، فقال: ممن ثكلتك أمك؟ فقلت: من الأنباء.

قال: فما حملك على أن تدعوني باسمي؟

قال شعيب: فورد على قلبي كلمة ما خطرت لي قط على بال فقلت له: أنا أدعو الله باسمه أقول: بالله، يا رحمٰن، ولا أدعوك باسمك؟ وما تنكر من دعائي باسمك، وقد رأيت الله سمّى في كتابه أحب الخلق محمد ﷺ، وكنى أبغض الخلق إليه أبا لهب فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ..﴾[1] فقال هارون: أخرجوه، فأخرجوني...

ومن طريف الموقف ما حدّث به سعيد بن سليمان قال: كنت بمكة وإلى جانبي عبد الله بن عبد العزيز العمري، وقد حج هارون الرشيد، قال له إنسان: يا أبا عبد الله هو ذا أمير المؤمنين يسعى، وقد أخلى له السعي، قال العمري للرجل: لا جزاك الله عني خيراً، كلفتني أمراً كنت عنه غنياً، ثم قام فتبعه فأقبل هارون من المروة يريد الصفا فصاح به: يا هارون، فلما نظر إليه قال: لبيك يا عمري، قال: ارق الصفا، فلما رقاها قال: ارم بطرفك إلى البيت، قال هارون: قد فعلت.

(1) سورة المسد، الآية: 1.

قال: كم هم؟

قال: ومن يحصيهم ؟ قال: فكم من الناس مثلهم؟

قال: خلق لا يحصهم إلّا الله.

قال: اعلم أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه...

وأنت وحدك تسأل عنهم كلهم، فانظر كيف تكون.

فبكى هارون. فقال العمري: وأخرى أقولها. قال: قل ياعم، قال: والله إن الرجل ليسرف في ماله فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن أسرف في مال المسلمين!

قال البغوي: فبلغني أن هارون الرشيد كان يقول: إني لأحب أن أحج كل سنة ما يمنعني إلّا رجل من ولد عمر، يسمعني ما أكره...

وقريب من هذا المقام في الخشونة والصدق ما كان بين أبي الحازم وسليمان بن عبد الملك.

فقد حج سليمان وبعث إلى أبي حازم حين قدم المدينة للزيارة، فلما دخل قال: تكلم يا أبا حازم، قال: فيمَ أتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال: في المخرج من هذا الأمر، قال: يسير إن فعلته، قال: وما ذاك؟ قال: لا تأخذ الأشياء إلّا مِن حلها، ولا تضعها إلّا في أهلها.

قال: ومن يقوى على ذلك؟

قال: من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك.

قال: عظني يا أبا حازم قال: اعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلّا بموت من كان قبلك، وهو خارج من يديك، بمثل ما

صار إليك.

قال: يا أبا حازم أشر علي، قال: إنما أنت سوق، فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر. فاختر أيهما شئت.

قال: ما لك لا تأتينا؟ قال: وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين؟

إن أدنيتني فتنتني، وإن أقصيتني أخزيتني وليس عندك ما أرجوك له، ولا عندي ما أخافك عليه!

قال: فارفع إلينا حاجتك.

قال: قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها، فما أعطاني منها قبلت وما منعني منها رضيت...

ويماثل هذا المقام مقام الأوزاعي بين يدي المنصور، ذكره عبد الله بن المبارك عن رجل من أهل الشام قال: دخلت عليه فقال: ما الذي أبطأ بك عني؟ قلت: يا أمير المؤمنين وما الذي تريد مني؟ قال: الاقتباس منك.

قلت: انظر ما تقول، فإن مكحولاً حدثني عن عطية بن بشر أن رسول الله ﷺ قال: **«من بلغه عن الله نصيحة في دينه فهي رحمة من الله، سيقت إليه فإن قبلها من الله يشكر، وإلا كانت حجة من الله عليه، ليزداد دائماً إثماً، وليزداد الله عليه غضباً، وإن بلغه شيء من الحق فرضي فله الرضا، وإن سخط فله السخط ومن كره فقد كره الله؛ لأن الله هو الحق المبين»**.

فلا تجهلن. قال: وكيف أجهل؟ قال: تسمع ولا تعمل بما تسمع!

قال الأوزاعي: فسلّ عليَّ الربيع السيف. وقال: تقول لأمير المؤمنين هذا! فانتهره المنصور وقال: أمسك، ثم كلمه الأوزاعي وكان من كلامه أنْ قال: إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذي أصبحت به، والله سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها ونقيرها، ولقد حدثني عروة بن رويم أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من راعٍ يبيت غاشاً لرعيته إلّا حرّم الله عليه رائحة الجنة**» فحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظراً ولما استطاع من عوراتهم ساتراً، وبالقسط فيما بينهم قائماً، لا يتخوف محسنهم منه رهقاً ولا مسيئهم عدواناً. فقد كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد ما هذه الجريدة بيدك؟ اقذفها، لامتلاء قلوبهم رعباً ودعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه إعرابياً لم يتعمده! فهبط جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك.

فكيف من سفك دماءهم وشقق أبشارهم ونهب أموالهم؟ يا أمير المؤمنين إن المغرور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها، ولو بقي الملك لمن قبلك، لم يصل إليك يا أمير المؤمنين، ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار عُلّق بين السماء والأرض لآذاهم، فكيف من يتقمصه، ولو أن ذنوباً من صديد أهل النار لأصبنه، فكيف بمن يتجرعه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف من سُلكَ فيها ويرد فضلها على عاتقه؟ واعلم أن السلطان أربعة:

أمير يظلف نفسه وعماله فذاك له أجر المجاهد في سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف، وأمير رتع ورتع عماله فذاك يحمل أثقاله وأثقالاً مع أثقاله، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله، فذاك الذي باع آخرته بدنيا غيره، وأمير يرتع ويظلف عماله، فذاك شر الأكياس[1]

□□

موت العالم كارثة

لله در القائل:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها
متى يمت عالم منها يمت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حلّ بها
وإن أبى عاد في أكنافها التلف

□□

الشعراء الأربعة

الشعراء فاعلمن أربعة
فشاعر يجري ولا يجري معه
وشاعر ينشد وسط المجمعة
وشاعر من حقه أن تسمعه

(1) كيف نفهم الإسلام، محمد الغزالي، ص: 65 ـ 71، دار الكتب الحديث بمصر. ط 1957.

وشاعر من حقه أن تصفعه!

❑❑

جواب محكم

قال المنصور في مجلسه لقواده: صدق الأعرابي حيث يقول: أجع كلبك يتبعك. فقام أبو العباس الطوسي فقال: يا أمير المؤمنين، أخشى أن يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك...

❑❑

خمسة لا يجوز أن تكون في ملك

مهما كان في الملك، فلا ينبغي أن يكون فيه خصال خمس:

* لا ينبغي أن يكون كذاباً، فإنه إذا كان كذاباً فوعد خيراً لمْ يُرَج أو أوعد بشر لم يُخَف.
* ولا ينبغي أن يكون بخيلاً، فإنه إذا كان بخيلاً لم يتناصحه أحد ولا تصلح الولاية إلّا بالمناصحة.
* ولا ينبغي أن يكون شديداً، فإنه إذا كان شديداً مع القدرة هلكت الرعية.
* ولا ينبغي أن يكون حسوداً، فإنه إذا كان حسوداً لم يُشرِّف أحداً ولا يصلح الناس إلّا على أشرافهم.
* ولا ينبغي أن يكون جباناً فإنه إذا كان ضاعت ثغوره واجترأ عليه عدوه.

❑❑

نشوة السلطة

يقول العالم الاجتماعي «جوستاف لوبون»: «إن للسلطة نشوة تعبث بالرؤوس» ولقد وصلت هذه النشوة التي تماثل نشوة الخمر برؤوس بعض عظماء التاريخ من ذوي السلطان المطلق، إلى حد أن جعلهم في بعض الأحيان يأتون ببعض التصرفات التي تحمل طابعاً من طوابع الجنون مثل الإسكندر الأكبر ونابليون[1]. كان يحرق مدينة كاملة ليتمتع بمشاهدة لهيب نار عظيم عن بعد كما فعل (نيرون) حاكم روما. وأن يقذف إلى حلبة صراع دام وحشاً ضارياً كالأسد وإنساناً عازلاً بريئاً ليتمتع بمشاهدة ظفر الغالب منهما ومصرع المغلوب، وقد مارست روما في أوج عظمتها وحضارتها الشيء الكثير. كل ذلك ينبغي أن يكون مقبولاً عندهم ؛ لأن الغاية تبرر الوسيلة.

□□

من خصال هدم السلطان

قال الحكماء: أسرع الخصال في هدم السلطان، وأعظمها، أسرعها في إفساده وتفريق الجمع عنه:

* إظهار المحاباة لقوم دون قوم.
* الميل إلى قبيلة دون قبيلة ، فمتى أعلن بحب قبيلة برئت منه قبائل. وقديماً قيل: (المحاباة مفسدة).

وقال مهبوذا لموبوذان : من زوال السلطان:

(1) القانون الدستوري والأنظمة السياسية، د. عبد الحميد متولي 1976.

* تقريب من ينبغي أن يباعد.

* ومباعدة من ينبغي أن يقرب. وحينئذٍ حان أوان الغدر.

وقيل لملك بعد ذهاب ملكه: ما الذي أذهب ملككم؟ قال: ثقتي بدولتي، واستبدادي بمعرفتي، وإغفالي استشاراتي، وإعجابي بشدتي، وإضاعة الحيلة وقت الحاجة، والتأني عند العجلة[1].

أيها اللاهي بلا أدنى وَجَل
اتق الله الذي عزّ وجل
واستمع قولاً به ضرب المثل
اعتزل ذكر الأغاني والغزل
وقل الفضل وجانب من هَزَل
كم أطعتُ النفس إذ أغويتها
وعلى فعل الخنا ربّيتها
كم لبالٍ لاهياً أنهيتُها
إنّ أهنا عيشةٍ قضّيتها
ذهبت لذاتها والإثم حلّ

□□

كيف تسود الدول وتنهار

الدول الكبيرة لاتضمر ولا تذوي، ولا تنكمش، ولكنها

(1) مجلة التربية الإسلامية العدد(8) السنة(8)1966م.

تنهار كما ينهار عمود الخشب الضخم الذي نخر السوس لبه، كذلك انتهت أثينا وروما وبغداد وأندلس والآستانة. انتهت حين كانت ضخامتها ومظاهر الترف فيها تخدع الناظر عن السوس الذي ينخر عظامها.

فالدول لا تسود ولا تعلو بالحديد ولا بالمال، ولكن تسود وتعلو بالخلق المتماسك، وأعلى مصادر الخلق المتماسك وأعمقها جذوراً وأدومها أثراً هو الدين، فإذا أعوز هذه الدول الخلق المتماسك فإن نهايتها تكون قد دنت[1].

❑❑

أحياء الأمة

يذكر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: أنه صادف في ليلة من تلك الليالي الزاهرة في حياة رائد النهضة الجزائرية الشيخ عبد الحميد بن باديس درساً في دار الحديث في تلمسان في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[2].

فقال لي رحمه الله بعد تمام الدرس ما معناه: إن هذا الدرس وحده كافٍ لإحياء أمة مستعدة. ولقد زادني هذا الدرس إيماناً

(1) حصوننا مهددة من داخلها، محمد محمد حسين، ص: 20، ط 3، 1971 ـ دار الرشاد، بيروت.

(2) سورة يونس، الآية: 87.

بقوله ﷺ في القرآن الكريم: «**لا تنقضي عجائبه**». وإن ما سمعته منك في معنى اتخاذ البيوت قبلة هو ما حوّم عليه علماء الاجتماع في مبدأ تكوين الوحدة الاجتماعية للأمم. أين هداية التجارب من هداية كلام الله؟ ولوددت لو أن المسلمين كلهم يسمعون مثل هذه الدروس[1].

❑❑

الفرد والأمة في التصوير الإسلامي

يقول المفكر والأصولي د. حمد عبيد الكبيسي ﷺ: إن للفرد في التصور الإسلامي شخصيتين:

1 ـ التكاليف الخاصة بالعلاقة بينه وبين ربه، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[2] وهذا هو المواطن الفرد قبل أن يتحد مع الآخرين.

2 ـ شخصية عامة باعتباره جزءاً من البناء الاجتماعي العام، وإلى هذه الشخصية تتجه التكاليف الجماعية، والتي هي المكون الأساسي لدور مجموعات مصنوعة من البشر، عليها أن تتحد مع ممثلاتها في شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد.

ومن هذه المجموعات المتناسقة تتكون الجماعة الفاضلة

(1) آثار، بشير الإبراهيمي (3/ 56).
(2) سورة الإسراء، الآية: 13.

التي أوجب الله عليها أن تقوم بدورها الفعال والمؤثر في وقاية المجتمع، وترشيده وصلاحه على أساس من الالتزام المؤدي إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل، وإقامة العدل. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1].

إن التصور الإسلامي للأمة قائم على أساس من تصور الإسلام للفرد، فما يوصف به الفرد توصف به الأمة تبعاً لذلك ونتيجة له حد سواء.

إن وصف القرآن الكريم للإنسان بالمسؤولية والتكليف يؤدي إلى نتيجة ثانية وهي: إن هذه المسؤولية هي المقياس الصحيح للإنسان الصحيح والجماعة الصحيحة، فإنه لا يضاهي بين فردين أو جماعتين إلّا وجد أن الأفضل منهما هو صاحب النصيب الأوفى في المسؤولية، وصاحب القدرة الراجحة على النهوض بالتبعات والاضطلاع بالحقوق والواجبات.

وليس أوضح على مسؤولية الفرد تجاه مجموعة كلها من قول النبي ﷺ: **«لايكن أحدكم إمَّعة يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنتُ وإن أساءوا أسأت، لكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم»**[2].

(1) سورة آل عمران، الآية: 104.

(2) تخريج الحديث في مشكاة المصابيح، (2/ 639).

وبهذه المسؤولية الجماعية تشعر الجماعة بقوة خفية تعينها على المحافظة على واجهة المجتمع موحدة نقية، وهذا مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية[1].

□□

قوة العقل

جاء في نهاية كتاب(الإسلام والحضارة العربية) للكاتب محمد كرد علي، هذه العبارة القيمة ذات المعاني الجليلة لمن ترجمها إلى الواقع العملي: (قوة السيف لا تدوم، إذا لم يؤيدها العقل، وإن فتح الأرض لا يطول إن لم تفتح قلوب أهلها بالإحسان)[2].

وهذا شأن كثير من الدول الغابرة التي تجاهلت هذه القاعدة العظيمة وضربتها عرض الحائط، إذ من غير الممكن أن يستتب الأمر لمن غفل موقع العقل والقلب ففي كافة مناحي الحياة ودوراتها يجب أن يكون للعقل كلمته ودوره في إرساء دعائم وتشييد الحضارة. وكانت مصير تلك الدول الفشل والتقهقر والتضعضع ؛لأنها قامت بالسيف والحديد وحده ولم يرع الجانب الأهم والمضيء وهي مخاطبة العقل بما توحي إليه مبادئ الرسالات الإلهية، وكانت من جملة العناصر التي

(1) بحث قيم نشر في مجلة الرسالة الإسلامية بعنوان: الوحدة الوطنية، عدد (184 ـ 185) سنة 1985، وزارة الأوقاف العراقية.

(2) الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي (2/ 537)، مطبعة الكتب المصرية، 1934م.

اتبعها الرسول القائد محمد ﷺ في الدعوة الإسلامية وفي غزواته أن رعى هذه العناصر وهي ما دعاه إليها الوحي الإلٰهي، وابتنت عليها الدولة الإسلامية، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1]. ولا يعد الفتح فتحاً إذا لم يؤثر على عقولهم.

❑❑

مكمن الداء

تعاني الأمة الإسلامية إلى حد ما غياب التنظيم المنسق والوحدة الشاملة، وهذا ما ذهب إليه المستشرق موريس برنو، وقد طاف معظم أقطار الشرق الإسلامي قبل عدة سنوات وخرج بالنتيجة التالية: ظهر لي أن معظم الضعف في الشرق منبعث عن تخلفه في مضمار التنظيم نفسه وتوحيد كلمته، فقد لقيت في كل صقع نزلته إلّا قليلاً إلى جانب صفات طيبة من الذكاء وحسن الخلق نقصاً في الأساليب وضعفاً في التوازن يقرب من الفوضى. وهذا كلام سديد ووصف مجيد[2].

❑❑

سبيل المتسلطين

سبيل المتسلطين لدوام السلطة أحد الأمرين: الثاني منه أقل عهداً ومكثاً:

1 ـ إما الإحسان الذي يملك النفوس، والعدل الذي يحفظ

(1) سورة النحل، الآية: 125.
(2) آثار البشير الإبراهيمي (1/ 61).

الحقوق، والتساهل الذي يستهوي الأفئدة، والرحمة التي تأسر العواطف.

2 ـ وإما المحقُ لمقومات المغلوب الروحية والمادية، أو تدريجياً وتحطيم عناصر المقاومة فيه جهرة واغتيالاً[1].

ولا بد أن ينتصر العدل على الجور، والحب على البغض والحقد، وأن تنتصر إرادة الشعب على إرادة الطواغيت رغم أنوفهم وإن غداً ناظره لقريب.

❑❑

الاعتبار

يقول الأمير أسامة بن منقذ في كتابه الشهير «الاعتبار»: إن ركوب أخطار الحروب، لا ينقص أجل المكتوب. فإنني رأيت معتبراً يوضح للشجاع العاقل، والجبان الجاهل: إن العمر مؤقت مقدر لا يتقدم ولا يتأخر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [2].

❑❑

المساواة أمام القضاء

روى أنس بن مالك ﷺ قال: كنا عند عمر بن الخطاب ﷺ إذ جاءه رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك.

---

(1) آثار البشير الإبراهيمي (2/ 168).

(2) سورة نوح، الآية: 4.

قال عمر: وما لك؟ قال الرجل: أجرى عمرو بن العاص (وكان أمير مصر) بمصر الخيل، فأقبلت، فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو فقال: فرسي ورب الكعبة، فقام إلي يضربني بالسوط ويقول: خذها وأنا ابن الأكرمين، فوالله ما زاد عمر على أن قال له: اجلس، ثم كتب إلى عمرو: (إذا جاءك كتابي هذا فأقبل ومعك ابنك) فدعى عمرو ابنه فقال له: أأحدثت حدثاً؟ أجنيت جناية؟ قال: لا. قال: فما بال عمر يكتب فيك؟ ثم قدم على عمر ﷺ قال أنس: فوالله أنا عند عمر فإذا نحن بعمرو قد أقبل في إزار ورداءٍ فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه؟ فإذا هو خلف أبيه، فقال: أين المصري؟ فقال: ها أنذا، قال عمر: دونك هذه الدرة فاضرب ابن الأكرمين قال: فضربه حتى أثخنه، ثم قال عمر ﷺ: اجعلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلّا بفضل سلطانه، فقال: يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضَربني. قال: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه، حتى تكون أنت الذي تدعه. ثم خاطب عمرو بن العاص فقال: أيا عمرو: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، ثم التفت إلى المصري فقال: انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب إليّ. تأمّل هذه الواقعة التي اخترناها من سجل القضاء الإسلامي وهي مليئة بمثل هذه الصور والوقائع والشواهد التي تدلك على عظمة الدين الإسلامي وعلى مصداقية مبادئه الغراء، فإنها حقاً ويقيناً سوّتْ بين الراعي والرعيّة. تأمل ذلك وقارنه مع الأنظمة الوضعية والديمقراطية!

□□

خطبة الخلافة

عندما بايع المسلمون أبا بكر الصديق ﷺ بالخلافة، صعد المنبر وألقى هذه الخطبة التي تناولت أموراً مهمة، حبذا لو جعلها كل حاكم نصب عينيه لكي تكون له خير معين في إصدار القرارات بموجب ما حوته هذه الخطبة، ولا يخفى أن الاقتداء بالسلف الصالح ولا سيما طليعتهم بعد الرسول الأعظم ﷺ الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصديق ﷺ أمر مأمور في شريعتنا الغراء:

«أما بعد أيها الناس: فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح (أرد) عليه حقه إن شاء الله تعالى. لا يدع أحد الجهاد في سبيل الله إلّا ضربهم بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلّا عمهم الله بالبلاء.

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».

ليعلم الناس ـ كل الناس ـ أكرم دروس في أصول الحكم، وأشرف معاني تحمل المسؤولية. ولإتمام الفائدة نعرض هذه الصورة المليئة بالحكم الجليلة، يقول الإمام علي ﷺ: وقد تولى إمارة المؤمنين، وتسلم مقاليد الأمور: «أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين، ثم أشارك المؤمنين في مكاره الزمان؟ والله لوشئت لكان لي من صفو هذا العسل،

ولباب هذا البر، ومناعم هذه الثياب، ولكن هيهات أن يغلبني الهوى، فأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى». إذاً فالمسألة ليست جاهاً ينشد ولا ترفاً يطلب ولا ألقاباً ينادي بها الناس، ولكنه تحمل المسؤولية والإحساس بخطورة التبعية.

ومشهد آخر يرويه الإمام علي ﷺ قال: رأيت عمر ﷺ على قتب يعدو فقلت: يا أمير المؤمنين... أين تذهب؟ فقال: بعير ندّ (هرب) من إبل الصدقة أطلبه.

فقلت: لقد أتعبت من بعدك.

فقال: فوالذي بعث محمداً ﷺ بالنبوة لو أن عناقاً (عنزاً) ذهبت بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة.

ولعل مثل هذه الرفعة من السلوك، وأداء الأمانة بصدق هي التي جعلته ينام قرير العين، هادي النفس رضيّ الخاطر في ظل شجرة عند ظاهر المدينة، طارحاً خلفه كل مظاهر الحكم وأبهة السلطان ليقف عند رأسه رسول من الفرس ليقول: عدلت فأمنت فنمت[1].

❑❑

الرسول القائد

المفكر الراحل سعيد حوى ﷺ قد حوى كتابه القيم (الرسول) عدة صفات مهمة وهي جزء من الصفات التي كان يتحلى بها قائدنا محمد ﷺ يقول: «إن نجاح القيادة السياسية

(1) المنهزمون، ديوسف العظم (12/ 40) سنة 1979، دار القلم، دمشق. بيروت.

يتوقف على ما يلي:

1 ـ على استيعاب هذه القيادة لدعوتها، وثقتها بها وبأحقيتها، وثقتها بانتصارها، وعدم تناقض سلوك هذه القيادة مع ما تدعو إليه، وبحيث تكون مواقفها كلها منسجمة مع هذه الدعوة، بحيث تكون هذه المواقف كلها لصالح الدعوة، حتى لا يكون بيد أعداء الدعوة سلاحاً فعالاً من هذه المواقف ضد الدعوة نفسها. وإذا كان هناك إنسان استوعب جوانب دعوته كل الاستيعاب، ولم يتزحزح عن جزء منها، فذلك هو محمد رسول الله ﷺ.

2 ـ وعلى قدرة القيادة على الاستمرار بالدعوة تبليغاً وإقناعاً. إن هناك شيئين أساسيين في العادة يجب أن يتفطن لها قادة الحركات السياسية الفكرية الجديدة:

* الحرص على استمرار عملية التبليغ والإقناع.
* البصر الحكيم في المواقف الذي يتخذ من الخصم.

إن أي دعوة من الدعوات إذا لم تستطع تأمين عملية استمرار التبليغ والإقناع تجمد، ثم تنحصر ثم تموت، وإن أي دعوة من الدعوات لا تتخذ الموقف المناسب من الخصم، تضرب ضربة ساحقة ثم تزول. وأنت عندما تدرس هذين الجانبين في العمل عند رسول الله ﷺ تجد أنه ﷺ قد نجح فيهما. فرغم تكالب الجزيرة العربية عليه ورغم العداء العنيف الذي وجه به، ورغم كل شيء

فإن عملية التبليغ لم تنقطع لحظة من اللحظات. أما بالنسبة للأمر الثاني فأنت تلاحظ حكمة مواقفه تجاه العدو فهو في مكة يصبر ويأمر أتباعه بالصبر ولو فعل غيرها لخسر أتباعه قتلاً.

3 ـ وعلى قدرة القيادة في استيعاب المستجيبين للدعوة تربية وتنظيماً وتسييراً.

إن الدعوة العقيدية تصاب من قبل أتباعها بسبب قيادتها من نواح ثلاث:

أ ـ ألا تقدر هذه الدعوة على أن تربي أتباعها تربية نموذجية، بحيث يعطي أتباعها صورة حسنة عنها، مما يؤدي إلى نفور الناس منها كأثر عن نفورهم من أصحابها. فيكون بذلك التابع حجة على الدعوة بدلاً من أن يكون حجة لها، وهذا يؤلب الرأي العام ضدها ويعطي الرأي العام حجة تلو الحجة عليها.

وعلى العكس من ذلك إذا ما رُبي أفرادها تربية نموذجية حية فإن الناس يؤمنون بها قبل إيمانهم بدعوتهم.

ب ـ أن يدخل الدعوة ناس ولا تستطيع هذه الدعوة أن تسخر طاقاتهم في سبيلها فأمثال هؤلاء يكونون في وضع مشلول.

أما في الحالة الأخرى فإنك تجد العكس، عندما تستطيع قيادة الدعوة أن تسخر طاقات الأتباع لصالح الدعوة، فإن المسؤولية يتحملها مجموع الأفراد.

ج ـ وعندما لا يحس الأتباع بالرعاية الدائمة، وبالملاحظة التامة، وعندما لا يوضعون فيما يحسّن وضعهم به، أو عندما يحسون بأنهم منسيون أو عندما لا يعرف الإنسان محله ومهمته المكلّف بها، كل هذا يؤثر على نفسية الأتباع بالدعوة ويولد عندهم فتوراً عنها.

وأنت عندما ترى حياة الرسول ﷺ وقيادته لأتباعه تجد تجنبه لهذه الجوانب، ففي الجانب الأول كيف أن الأمة الإسلامية كلها قد وسعت تربية، وكيف ارتفع الأفراد من طور إلى طور بحيث أصبحوا نماذج يقتدى بها.

وفي الجانب الثاني: ترى الحركية الدائمة التي تجعل أصحابه دائماً يعيشونها، فإذا أسلم رجل رباه التربية الإسلامية ثم كلفه أن يقوم بأعباء الدعوة في جهة من جهاتها، ويقوم بجزء من أعبائها.

وفي الجانب الثالث: ترى دقة الرسول ﷺ في الرعاية والعناية والسهر على شؤون الأتباع بشكل عجيب، وكيف أنه لا ينسى أحداً منهم، بل يستوعبهم جميعاً برعايته.

4 ـ وعلى وجود الثقة الكاملة بين القيادة وأتباعها. إن ثقة الناس بالقائد الرسول ﷺ كانت ثقة متناهية، يكفي أن نذكر موقفاً من مواقف الصحابة يبرز لنا مدى ثقتهم اللامتناهية بالرسول ﷺ: يقول الصحابي الجليل قبل نشوب غزوة بدر مخاطباً الرسول ﷺ: قد آمنّا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك

على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُر في الحرب صُدُق عند اللقاء، لعل الله يريك ما تقر به عينك، فسر على بركة الله.

5 ـ وعلى قدرة القيادة أن تعرف إمكانية الأتباع، وأن تستطيع الاستفادة من كل إمكانياتهم العقلية والجسمية أثناء الحركة، بحيث يؤخذ كل منهم محله الصحيح. إن عبقرية القيادة لا تظهر بشيء ظهورها بمعرفة الرجال، ووضع كل في محله واستنفاذ عقول الأتباع بالشورى، واستخلاص الرأي الصحيح، وفي كل من هذين كان الرسول ﷺ الأسوة العليا للبشر.

إن الشورى في فن السياسة: عملية تستجمع فيها طاقات العقول كلها لاستخلاص الرأي الصالح، ويتحمل فيها كل فرد مسؤولية القرار النهائي، ويقتنع فيها كل فرد بالنتيجة.

6 ـ وعلى قدرة القيادة أن تحل المشاكل الطارئة بأقل قدر ممكن من الجهد، إن الدعوات والتنظيمات السياسية التي تقوم على أساسها، كثيراً ما تضرب بسبب مشكلة طارئة لا تستطيع القيادة أن تحلها حلاً موفقاً، مما يؤدي إلى انقسامها أو ضربها والقضاء عليها.

وقد يحدث أن بعض القيادات تحل المشاكل حلاً غير مشروع فتستعمل القوة مع أتباعها فتبيد المعارضين، كما

نرى كثيراً من هذا في عصرنا الحاضر.

وإنك لتجد قدرة كاملة للرسول ﷺ على حل المشاكل الطارئة وهذا نموذج من حلوله السريعة:

* حله مشكلة وضع الحجر الأسود قبل النبوة.
* مشكلة المنافقين.
* حله لمشاكل الهجرة.
* حله مشكلة هزيمة أُحد... إلخ.

7 ـ وعلى أن تكون هذه القيادة بعيدة النظر مستوعبة لكل الواقع، فتضرب ضرباتها بشكل محكم.

إن الدارس لتصرفات الرسول ﷺ يجد أنه لا يوجد تصرف من تصرفاته ﷺ إلّا وفيه غاية الحكمة، وبعد النظر، وحنكته.

8 ـ وعلى قدرة القيادة أن تصل إلى النصر والاستفادة منه، وتطبيق مبادئ دعوتها تطبيقاً صحيحاً.

9 ـ وعلى قدرة هذه القيادة أن تحكم أمر بناء دولتها إحكاماً يجعلها قادرة على الصمود والنمو على المدى البعيد.

وما عرف التاريخ إنساناً عمل في هذه الجوانب كلها إلى أعلى درجات الكمال غير سيدنا محمد ﷺ [1].

❑❑

(1) كتاب «الرسول ﷺ» لسعيد حوى (1/ 197). ط4 ـ 1979، دار الكتب العلمية، بيروت.

الإرهاب يقضي على الإبداع

إن الرجل لا يقوم بالعمل العظيم، وهو منساق إليه بالسياط الكاوية، إنما تولد الإجادة ويبلغ الشيء درجة الإحسان، بما يقارنه من رغبة ورضا، فإذا أقبل المرء بفكره وقلبه على معتقد، وهب له نفسه وحسه، وعاش يحلم به في منامه، وينشط له في يقظته، وذلك يرقى به صعداً في فهم مبادئه وإجادة خدماته[1].

❑❑

حدود الحرية

... فحرية الرأي مكفولة في الحدود التي لا يتعرض معها المجتمع للخطر بإثارة الفتن والتشكيك بالدين ومصادره، وفي الحدود التي لا تتحول عندها إلى عدوان على حقوق المؤمنين وإيذاء لمشاعرهم وضمائرهم[2].

مع أن المنادين بالحرية هم أكثر الناس مخالفة لها وجوراً لأنهم لا يتمسكون بها إلّا إذا كانت في صالحهم[3]، ويقول الشيخ محمد الغزالي: إن حرية الرأي لا تعني حماية الخطأ، وإعطاءه حق الحياة، وأقصى ما يناله الخطأ أن يعيش، ريثما يعدم ويتوارى، والطريق التي نؤثرها أن نحارب

(1) المصدر نفسه، ص: 362.
(2) حصوننا مهددة من داخلها، د. محمد محمد حسين، ص: 307. دار إرشاد بيروت، ط 3 ـ 1971م.
(3) حصوننا مهدّدة من داخلها، ص: 362.

الفكرة بالفكر[1].

□□

الحرية الشخصية

حدث أن الإمام عمر بن الخطاب ﷺ، أثناء تجوله وتعسسه بالليل، أحس بجماعة يجتمعون على مجون، فتسوّر عليهم وفاجأهم في لهوهم ومجونهم، ففزعوا، ولكن كان لديهم - على ما هم فيه - قدر من الشجاعة، وقدر من العلم بالإسلام جعلهم يحاكمون أمير المؤمنين إليه حتى جعلوه في موقف المدافع لا في موقف المهاجم.

قالوا: يا أمير المؤمنين، لئن كنا قد ارتكبنا خطأ لقد ارتكبت ثلاثة!

قال: وما هي؟ قالوا: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[2] وقد تجسست.

وقال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[3] وقد تسورت.

وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾[4] ولم تفعل.

فعجب أمير المؤمنين من فقههم، واعتذر إليهم كما

---

(1) من هنا نعلم، لمحمد الغزالي، ص: 15، دار الكتب الحديثة بمصر / ط 5/ بدون التاريخ.

(2) سورة الحجرات، الآية: 12.

(3) سورة البقرة، الآية: 189.

(4) سورة النور، الآية: 27.

اعتذروا إليه وعاهدوه على أن يتوبوا.

فهذه هي (الحرية الشخصية) حقك ألّا يتجسس أحد عليك ولو كان أمير المؤمنين نفسه، وأن يكون لمسكنك حرمته، ولو مارست فيه المعصية وحسابك على الله ، أما أن تطل المعصية برأسها ويخرج المنكر إلى ظاهر المجتمع يقارفه من يشاء، فهذا باب واسع لفساد عريض وانحلال كبير لا يقره دين من قواعده سد الذرائع إلى كل شر.

□□

(الحرية العقيدية) لا إكراه في الدين

إن المبادئ التي تفرض على الناس بقوة... أول شيء يعرف فيها أن صاحبها الذي فرضها بالقوة... غير مقتنع بها، ولو كان مقتنعاً بها لقال: ما الذي يمنع الناس حين أعرض عليهم منهج الحق... أن يقتنعوا به... ولكنه في نفسه غير مقتنع... وهو يقول في نفسه: إن لم أحمل الناس على ذلك المبدإ بالقوة... لما اقتنع به أحد... ولو كان مقتنعاً به في ذات نفسه لرأى ذلك أيضاً في غيره.

والقوة التي تفرض... إنما تتحكم في القالب وحده ولكنها لا تتحكم في القلب أبداً[1]

□□

(1) أسئلة حرجة وأجوبة صريحة، للشيخ محمد متولي الشعراوي، ص: 60.

انتقاء السفراء في الإسلام

لقد كان السفراء يختارون وفق أدق القواعد؛ لأن السفير يمثل الخليفة يتكلم ويفاوض ويبرم المعاهدات باسمه، وحديث عبد الملك بن مروان مع سفيره الفقيه عامر ابن شرحبيل الشعبي، أصدق شاهد على هذا الاهتمام، فقد رشح عامر للسفارة لدى البلاط البيزنطي، ودارت بينه وبين الخليفة مناقشة طويلة كانت بمثابة امتحان أو مقابلة، ولطرافة هذا الامتحان نورده ؛ فقد كان عامر من أقدر سفراء الدولة، بدأت المناقشة بسؤال من الخليفة:

قال الخليفة: يا شعبي ما العلم؟

قال الشعبي: هو ما يقربك من الجنة ويباعدك عن النار.

قال الخليفة: يا شعبي ما العقل؟

قال الشعبي: ما يعرفك قواعد رشدك ومواقع غيّك.

قال الخليفة: متى يعرف الرجل كمال عقله؟

قال الشعبي: إذا كان حافظاً للسانه مدارياً لأهلِ زمانه ثقيلاً على شأنه.

قال الخليفة: يا شعبي أنشدني أحكم ما قاله العرب وأوجز.

قال الشعبي: يا أمير المؤمنين، قول زهير:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه

يفره، ومن لا يتق الشتم يُشتَم

وقول النابغة:

ولست بمستبق أخاً لا تلمّه
على شعثٍ أي الرجال المهذب

وقول عدي بن يزيد:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقول طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لايذهب العرف بين الله والناس

وانتقل الخليفة بعد ذلك إلى اختبار الشعبي اختباراً شخصياً أشبه باختبارات الذكاء اليوم والتي تبين مقدار ضبط المرء لنفسه، وكان الشعبي ضئيل الجسم فقال له الخليفة: إنك لدميم يا شعبي.

فأجاب الشعبي على الفور: زوحمت في الرحم يا أمير المؤمنين: أي أنه توأم وعادة ما يكون أحد التوائم أقل جسماً من الآخر[1]، وبعد امتحان الخليفة له ثبت أنه جدير بالسفارة،

(1) السفارات في الإسلام، السفير محمد التابعي، ص: 51، مكتبة مدبولي.

ووجهه سفيراً إلى ملك الروم.

قال الشعبي: فلما عدت قال لي عبد الملك: يا شعبي تدري ما كتب به إليّ ملك الروم؟

كتب إليّ: العجب لأهل دينك كيف لم يستخلفوا رسولك؟

قال الشعبي: فقلت: يا أمير المؤمنين، لأنه رآني وما رآك.

ذكرها الأصمعي وزاد فيها: إنما أراد أن يغريني بقتلك! فبلغ ذلك ملك الروم فقال: ما أردت إلّا ذاك[1].

❑❑

مظنة الرسالة اللغز

أرسل أحد الملوك وزيره إلى مملكة مجاورة كانت تكنُّ لمملكته العداء ليستطلع أحوالها قبل أن يقوم على مهاجمتها، فتسلل الوزير متخفياً، ولكن ما لبث حتى افتضح أمره فقبض عليه، وأودعه في السجن تحت حراسة مشددة، وطُلِبَ منه أن يكتب رسالة إلى ملكه يخبره بغير ما رأى، ويغريه بالهجوم، وكان الوزير أديباً وذكياً وبارعاً فكتب الرسالة التالية: (أما بعد، فإني أصبحت مستريحاً من السعي، وقد استضعفت القوم بالنسبة إليكم، وأرى أنكم الفئة الغالبة بإذن الله، ولقد رأيت من أحوال القوم ما يُسرّ به قلب الملك، نصحت فدع ريبك ودع مهلك والسلام...) ولما اطلع الملك على الرسالة فهم مضمونها ثم قرأها على وزرائه وقواده فأشاروا عليه بالهجوم

(1) الفلائد من فرائد الفوائد، د. مصطفى السباعي (1/ 178).

دونما إبطال. فقال الملك: لقد فهمت من الرسالة غير ما فهمتم فقد جاء فيها: إن وزيرنا أصبح مستريحاً من السعي، يريد بذلك إنه سجين، ومن قوله: استضعفت القوم بالنسبة إليكم يريد أن يقول: إنهم ضعفنا عدداً، وأما قوله (بأننا الفئة الغالبة بإذن الله) فهو يشير إلى الآية الكريمة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[1] وأخيراً فإنَّ قوله (رأيت من أحوال القوم ما يُسرُّ به قلب الملك) يشير للملك أن يقلب حروف هذه العبارة فإن قلبت هذه العبارة الواردة بعد قلب الملك فستقرأ هذه العبارة: (نصحت فدع ريبك ودع مهلك) من اليسار إلى اليمين لأصبحت العبارة: (كلهم عدو كبير عد فتحصّن)!

نفهم من هذه الرسالة أن الدولة الناجحة يجب أن تختار الكفء لمهمة السفارة، ويمتاز بالفطنة والفراسة والحنكة والدهاء والرقة والعلم الغزير، كل هذا يساعده على أداء مهامه بشكل مرضي، ويجب علينا أن لا نتسرع في إصدار القرارات والحكم بسرعة بدون تروٍ وتمعن على المسائل المهمة حتى تأخذ قسطاً من الوقت الكافي.

□□

نصيحة ثمينة

استمع إلى الإمام الحسن البصري رحمه الله وهو يقول: (إنَّ مَنْ يُخوِّفك حتى تلقى الأمن أشفق عليك ممنّ يُؤمِّنك حتى

(1) سورة البقرة، الآية: 249.

تلقى الخوف)[1].

□□

تجربتي مع الناس والحياة

يقول الكاتب أحمد الشرباصي عن تجربته مع الناس:

«الحياة قاعدتها الأحياء، فهل يستطيع الإنسان حقاً أن يتحدث صادقاً وصريحاً عن تجاربه مع هؤلاء الأحياء: فيهم الأقرباء وفيهم الأحباء وفيهم الأعداء وفيهم رؤوساء ليس إلّا أن يتحدث الإنسان عن جزء من هذه التجارب وأمره إلى الله: هناك أفراد أحسنوا الظن بالإنسان، وبالغوا في حسن ظنهم إلى درجة البلاهة، وأفراد أساؤوا به الظن وبالغوا في سوئه إلى درجة الإسراف الأثيم، وأقسى ما يؤلم النفس ويمزق الفؤاد أن يتضاعف حسن الظن والتكريم من هؤلاء في مواطن يحتاج الإنسان فيها إلى الحساب أو العقاب. وقد تبلغ شناعة التخيل في تصوير المفارقة بين هؤلاء وأولئك أن يتخيل إنسان يداً تحظى بالتقبيل حين تستحق البتر، ثم تقطع هذه اليد حين تستحق التقبيل[2].

أما الكاتب الكبير عباس محمود العقاد فيروي تجربته مع الناس...

يقول العقاد رحمه الله: علمتني الحياة خطتين في سياستي مع الناس:

---

(1) المتنبي، محمود محمد شاعر، ص: 80.

(2) يسألونك في الدين والحياة.

خطة أتبعها فيما يصيبني من الناس، وخطة أتبعها فيما يصيب الناس مني، فاسترحت كثيراً من تبديد شعوري في غير طائل، وعرفت كيف يكون الاقتصاد في إنفاق ثروة الحياة.

أما خطتي فيما يصيبني من الناس: فهي أن أتناول طباعهم وأخلاقهم جملة واحدة، ولا أفرق بينهم على حسب اختلاف الأشخاص والأفراد.

أما خطتي فيما يصيب الناس مني: فهي أن أسأل نفسي كلما شعرت بسخطهم أو انتقادهم: (هل الأمر يعنيني؟)، وبعبارة أخرى: (هل يضيرني أن أفقد رضاهم، وهل يعجبني أن أفقده؟)، ويقول في مكان آخر عن ما أخذه من الحياة أو ما أخذت الحياة منه: «أعتقد أنني أخذت من الحياة أكثر مما أعطيتها. وأشعر أنني أخذت حقي... إن الإنسان عندما يدرك في مثل هذه المرحلة من عمره، وهو متمالك لقواه، في حالة ذهنية طيبة يكون قد أخذ نصيباً كبيراً من الحياة، وأنا أطمع من الحياة، لا حبًّا لي فيها. ولكن حبًّا في استزادة مما في الحياة من علم ومعرفة. وفي رأيي أن الحياة ليست نعمة، كما وأنها ليست نقمة، إنها تكليف للإنسان بالعمل»[1].

□□

علمتني الحياة

قصيدة قيمة للشاعر المبدع محمد مصطفى حمام، حيث

(1) دراسات في علم النفس، د. دحام الكبال، ص: 3، 1970، ط2، مؤسسة الأنوار، الرياض.

حوت أبرز سمات المسلم ومعانيه السامية، وأوردت أيضاً الصراع الدائم بين الخير والشر وأيضاً بين متاعب الحياة وتجاربه ومواجهة الإنسان هذه الحياة، وعلى شفتيه بسمة تترجم عن رحابة الصدر وسعة الاحتمال، وبسمة ترى في الله عوضاً عن كل فائت، وفي لقائه المرتقب سلوكاً عن كل مفقود. ولتثبت القصيدة حتى نتعلم من مدرسة الحياة:

علمتني الحياة أن ألتقي
كل ألوانها رضاً وقبولا
ورأيت الرضا يخفف أثقا
لي ويلقي على الناس سدولا
والذي ألهم الرضا لا تراه
أبد الدهر حاسداً أو عذولا
أنا راضٍ بكل ما كتب الله
ومزج إليه حمداً جزيلا
لست أخشى من اللئيم أذاه
لا ولن أسأل النبيل فتيلا
فسح الله في فؤادي فلا أر
ضى من الحب والوداد بديلا
ضل من يحسب الرضا عن هوان
أو يراه على النفاق دليلا

فالرضا نعمة من الله لم يسـ
ـعد بها في العباد إلّا قليلا
والرضا آية براءة والإيما
ن بالله ناصراً أو وكيلا
علمتني الحياة أن لها طعـ
ـمين مُرًّا وسائغاً معسولا
فتعودت حالتيها قريراً
وألفت التغيير والتبديلا
أيها الناس كلنا شارب الكأ
س إن علقماً وإن سلسبيلا
نحن كالروض نضرة وذبولاً
نحن كالنجم مطلعاً أو أفولا
نحن كالريح ثروة أو سكوناً
نحن كالمزن ممسكاً وهطولا
نحن كالظن صادقاً أو كذوباً
نحن كالحظ منصفاً وخذولا
قد تسرّي الحياة عني فتبدي
سخريات الورى قبيلاً قبيلا
فأراها مواعظاً ودروساً
ويراها سواي خطباً جليلا

أمن الناس في مخادعة
النفس وضلوا بصائراً وعقولا

عبدوا الحياة والنضار وعيناً
من عيون المها وخداً أسيلا

وإذا غادة تجلت عليهم
خشعوا وتبتلوا تبتيلا

وتلوا سورة الهيام وغنّوها
وعافوا القرآن والإنجيلا

لا يردون أجلاً من ثواب الله
إن الإنسان كان عجولا

فتنة عمت المدينة والقر
ية لم تعف فتية أو كهولا

وإذا ما انبرين للوعظ قالوا
لست رباً ولا بمثت رسولا

أرأيت الذي يكذب بالدي
ن ولا يرهب الحساب الثقيلا

أكثر الناس يحكمون على النا
س وهيهات أن يكونوا عدولا

فلكم لقبوا البخيل كريماً
ولكم لقبوا الكريم بخيلا

ولكَم أعطوا المليح فأغنوا
ولكَم أهملوا العفيف النجولا

رب عذراء حرة وصموها
وبغيٍّ قد صورها بتولا

وقطيع البين ظلماً ولصّ
أبشع الناس كفّهُ تقبيلا

وسجين صبوا عليه نكالاً
وسجين مدللٌ تدليلا

جُلّ من قلد الفرنجة منا
قد أساء التقليد والتمثيلا

فأخذنا الخبيث منه ولم نقـ
ـنبس من الطيبات إلّا قليلا

يوم سنّ الفرنج كذبة إبر
يل غدا كل عمرنا إبريلا

نشر الرجس فقرةً فنشرنا
ه كتاباً مفصلاً تفصيلا

علمتني الحياة أن الهوى سيـ
ـل فمن ذا الذي يرد السيولا

ثم قالت: والخير في الكون باق
بل أرى الخير فيه أصلاً أصيلا

إن ترى الشر مستفيضاً فهوّن
لا يحب الله البؤوس المملولا
وبطول الأيام تعرض لو نبْـ
ـها على الناس بكرة وأصيلا
فذليل بالأمس صار عزيزاً
وعزيز بالأمس صار ذليلا
ولقد ينهض العليل سليماً
ولقد يسقط السليم عليلا
رب جوعان يشتهي فسحة المعـ
ـر وشبعان يستحث الرحيلا
وتظل الأرحام تدفع قابيـ
ـلاً فيردى بسيفه هابيلا

❑❑

ميادين الحياة

دفع الإسلام أبناءه بتلك الروحانية إلى ميادين الحياة، بعد أن عرّفهم بمعاني الحياة:

1 ـ دفع الأبطال إلى الفتح وجعل الرفق رديفه.

2 ـ ودفع أُولي الهمم إلى الملك، وجعل العدل حليفه.

3 ـ ودفع العلمَاء إلى التربية وجعل الإصلاح غايته.

4 ـ ودفع الأغنياء إلى بناء المآثر، وجعل عزة الأمة نهايتها،